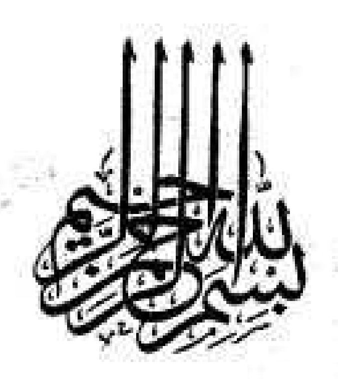

حياة محمد صلى الله عليه وسلم
تأليف / سيد مبارك
الناشر
المكتبة المحمودية
ت: ٥١٤٥٣٢٠ - ٥١٠٣٦١٧

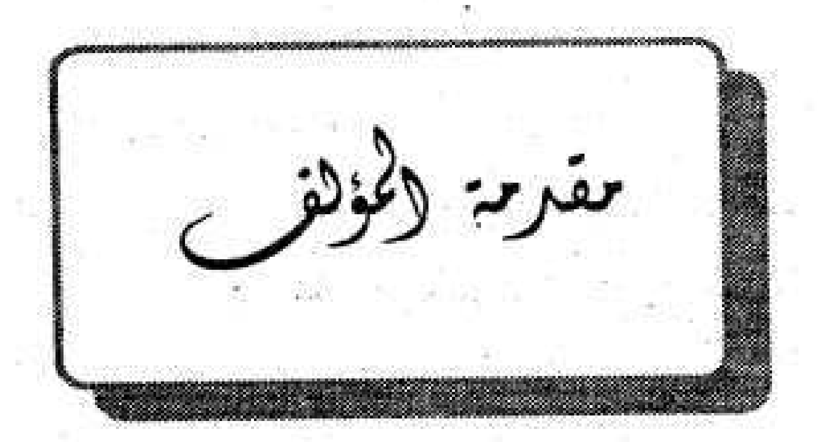


وقل رب زدني علما

الناشر
المكتبة المحمودية
القاهرة - ميدان الأزهر
ت/ ٥١٠٣٠٦٧
ت/ ٥١٤٥٣٢٠



رقم الإيداع
٢٠٠٤/١٧٤٣



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد ... أخي القارئ

هذا الكتاب الذى بين يديك يبين لك قصة أعظم إنسان خلقه الله في الوجود فكل صفحة من صفحاته وكل سطر من سطوره وكل كلمة من كلماته تنطق بعظمة هذا الإنسان ولا عجب في ذلك !! . لأنها قصة سيد العابدين وإمام المتقين

الصادق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ .

ولا ريب إنك تدرك أن قصة حـياة النبى ﷺ لا تكفيها مجلدات لأنـها قصة حيـاة إنسان جعله الله تعـالى أسوة حسنة لمن أراد رضاه وطـمع في جنته ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

لهذا كله يثير دهشـتى !! ما يفعله مسلموا القرن الواحـد والعشرين ، عندما يحين مولده ﷺ تجد المسلمين في كل بقاع المعمورة يحتفلون بمولده بإلقاء القصائد والبيانات وإحـياء البدع وإماتة السنن ونشر المـنكرات وترك الهدايات ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وسبحان الله .. أمة تحتفل بمولد نبيـها ﷺ بالكلمات والقصائد لا بالأعمال والمقاصد وما في ذلك من رياء وضياع لثواب الدنيا والآخرة .

ألا فليعلم كل مـسلم ومسلمة أن النبى ﷺ قـال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قـيل ومن يأبى يا رسول الله ؟ قـال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »[1] .

أخي القارىء :

بين صفحـات هذا الكتاب أحاول جهـدى أن أبين مواضع العظمة والعـبقرية والكمال الإنسانى في حياة سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

ولنا سؤال ندرى إجابته جميعًا ! ما الذى جعل الصحابة من قومه مثل : أبى بكر وطلحة والزبير وعثمان وعبـد الرحمن بن عوف وغيرهم يسارعون إلى الإيمان بدعوته ويتعرضون في سبيل ذلك إلى الأذى في المال والنفس والأهل ؟!!

(١) أخرجه البخارى ، وأحمد في مسنده .

نعم .. ما الذى جعل جبار الجاهلية عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى أراد قتل النبى ﷺ فإذا به يعود من عنده ليقتل كل من يعترض طريق الدعوة أو يحاول أن يؤذى النبى ﷺ ؟!!.

نعم .. ما الذى جعل أهل المدينة (الأنصار) يبايعونه بأن يخوضوا معه الأهوال من أجل نشر دين الله ويفدونه بأموالهم وأرواحهم وأولادهم وأهليهم وهو الذى يذكرهم ليل نهار أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا .

ما الذى ملأ قلوبهم يقينًا وعزمًا وإيمانًا على نصرته والشهادة في سبيل الله تعالى ؟

أظن الإجابة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء .

إن شخصية النبى ﷺ وحياته وسيرته وعظمته وعفته وأمانته وتواضعه وشجاعته وغير ذلك من الصفات التى تجمع الكمال الإنسانى في شخصه ﷺ كانت المصباح الذى أضاء للبشرية كلها وليس للصحابة فقط الطريق إلى الله .. وإلى توحيده وعبادته خوفًا من عذابه وطمعًا في جنته .

فالصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

لقد كنت في العلم والحكمة سيد العلماء والحكماء . وكنت في الخلق والأدب مثال الكمال في ضبط النفس ورقة القلب وعفة الضمير واستقامة السيرة . وكنت في الحكم والرئاسة عظيم العظماء لم يعرف التاريخ ولن يعرف مثلك في سياسته وحسن قيادته وتأليفه بين قلوب الرجال وجمع كلمة الأمة على هدف واحد وغاية واحدة دون ضعف أو كلل ، فالصلاة والسلام عليك يا رسول الله .
يا من أدبك ربك وجمع فيك الخير كله واختارك من بين عباده وجعلك صفيه وحبيبه ، ونبيه وخليله وأكرمك بالرسالة والنبوة وشرح صدرك للهدى ودين الحق

وأبرئك من كل عيب ووصفك في كتابه الكريم بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

بما لم يصف به نبيًا من أنبيائه وجعل محبته مشروطة بمحبتك من عباده فقال جل شأنه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وجعل طاعتك من طاعته فقال عز وجل : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

فالصلاة والسلام عليك يا رسول الله فما أروع سيرتك وأعظم بركتها إنها المدرسة الإلهية لكل قائد وزعيم ، وكل أب وزوج ، وكل داعية إلى الله ، وكل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله محمداً رسول الله .

أخي القارئ ..

اقرأ بقلبك وتدبر حياة نبيك ﷺ لتقتدى به .

وأسأل الله تعالى لى ولك ولجميع المسلمين أن يحشرنا في زمرته وأن يورثنا حوضه ويرزقنا شفاعته ومجاورته في الفردوس الأعلى من الجنة إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

سيد مبارك أبو بلال

١٨ شوال ١٤٢٣ هـ / ٢٢ديسمبر ٢٠٠٢ م

❊ ❊ ❊

الفصل الأول :

حالة العرب قبل ميلاد النبى ﷺ

كان العرب قبل ميلاد النبى ﷺ يعيشــون في جهل حياة عابثة فاسدة لا غاية لها ولا هدف من وراءها إلا إرضاء شهوات النفس وإباحة المنكرات والفواحش .

وكانوا يعبدون الأصنام والأحجار منْ دون الله جل وعلا ، وأول من أدخلها بلاد العرب رجل يسمى (عمرو بن لُحى) الذى كان رئيسًا لقبيلة خزاعة وهى من قبائل العرب ، وكـان (عمرو بن لحُى) معروفًا بحبه للخـير والحرص على أمور الدين فأحبه الناس وظنوه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء .

سافر (عمرو بن لُحى) إلى بلاد الشام فوجـدهم يعبدون الأصنام فاستحسن ذلك وظنه حقًا لأن الشـام محل الرسل والكتب فـأتى معه بصنم اسـمه (هبل) وجعله في جـوف الكعبة ودعـا أهل مكة إلى الشرك فأجـابوه ظنًا منهم بأن ذلك الصنم وعبادتهم إياه لا تغير من دين إبراهيم عليه السلام الذى كان يدين به البعض منهم شيئًا . فكان (عمرو بن لُحى) أول من بدل دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ويشهد بهذا قول النبى ﷺ : « رأيت عمرو بن لُحى يجر قصبه[1] في النار إنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحـمى الحام . . » . ثم قلده الكثير من أهل مكة وانتـشرت الأصنام في ربوع الجزيرة العربية وعبدوها من دون الله عز وجل . وضحك عليهم الشيطان وظنوا أنهم يقـربوهم إلى الله فهم شفـعاء لهم عنده وهذا ما كذبهـم فيه القرآن فقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ

---

(١) القصب : بوزن قفل ، اسم للأمعاء كلها .

هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] . وكان من ضلالهم وكفرهم أن نصبوا هذه الأوثان في بيوتهم ومنهم من يأخذهم معه في سفره يتبرك بهم .

- وروى البخارى في صحيحه عن أبى رجاء قال : « كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به »[1] .

وكانت هناك في الجاهلية ثلاثة أصنام بصفة خاصة يعظمها العرب وهم :

- **مناة** : وكانت منصوبة على ساحل البحر ، وتعبدها قبيلتا الأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة ولما جاء الإسلام وانتصر التوحيد على الشرك بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان أو على بن أبى طالب رضى الله عنهما فهدمها .

- **اللات** : وكان في الطائف وقيل : إن أصله رجل صالح فلما مات عكفوا على قبره .

- **العزى** : وكانت بين مكة والطائف .

فهؤلاء الثلاثة هم أكبر أصنامهم التى كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها ويستغيثون بها في الشدائد ويدعونها لحاجاتهم معتقدين أنها تشفع عند الله وتحقق لهم ما يريدون . وكانوا يطوفون بها ويسجدون لها ويذبحون ويتقربون إليها بأنواع القرابين . حتى إنهم كانوا يخصصون لها نصيبًا من حرثهم وأنعامهم والطريف أنهم كانوا يخصصون من ذلك جزءًا لله أيضًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

---

(١) أخرجه البخارى .

فضلاً عن كل هذا كانوا يستقسمون بالأزلام ويؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين وكانت فيهم الطيرة وهى التشاؤم بالشيء ومجمل القول أنهم كانوا في ضلال وشرك وجاهلية ومعظمهم مطموس البصر والبصيرة .

العادات السيئة والحالة الاجتماعية قبل الإسلام :

لا تقل الحالة الاجتماعية والفساد والانحلال في المجتمع الجاهلى قبل الإسلام عن فساد العقيدة عندهم وربما أشد !! كان الرجل بطبيعة الحال رئيس الأسرة والآمر الناهى فيها ولكن كان للمرأة دور إن شاءت جمعت القبائل للسلام وإن شاءت أشعلت بينهم الحرب والقتال ، ولكن كانت علاقتها بالرجل علاقة نستطيع أن نعبر عنها بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة ، روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها « أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها .

ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع .

ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، فتسمى من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها .

ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا لمن أرادهن ودخل عليهن ، فإذا حملت ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى



يرونه فالناطة ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمداً ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم »[1] .

وكان من عاداتهم السيئة والمحرمة :

- وأد البنات وهي أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حية في التراب خوفاً من العار ولهذا وبخ الله فاعله يوم القيامة فقال جل شأنه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ - ٩] .

- تبرج النساء بخروج المرأة كاشفة عن محاسنها كأنها تعرض نفسها وتغري بها غيرها .

- قتل الأولاد مطلقاً ذكوراً أو إناثاً عند الفقر والمجاعة وفي ذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

- العصبية القبلية وتقوم على مبدأ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » أي نصره على كل حال وليس كما قال النبي ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقيل له يا رسول الله : أنصره إذا كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تحجزه عن الظلم »[2] .

- اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحب معهم في السر فحرم الإسلام هذه العادة بقوله تعالى : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وحرم على الرجال ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة : ٥] .

هذه بعض العادات السيئة التي انتشرت بين الناس في الجاهلية ولكن العجيب الذي يثير الدهشة والعجب ، رغم هذا الفساد والشرك والجاهلية كان العرب لهم

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح باب وجوه النكاح التي يتناكح بها أهل الجاهلية .

(٢) أخرجه البخاري .

عادات حسنة من ذلك : الصدق أى صدق الحديث ، وإكرام الضيف وإطعامه ، والوفاء بالعهود وعدم نكثها مهما كلفت من ثمن ، واحترام الجوار وتقرير الحماية لمن طلبها . والصبر والتحمل ، والشجاعة والنجدة وعدم قبول الذل والمهانة ، واحترام الحرم والأشهر الحرم بعدم القتال فيها إلا لضرورة .

ومن عاداتهم الحسنة أيضًا :

- تحريمهم نكاح الأمهات والبنات ، واغتسالهم من الجنابة ، والختان ، وقطع يد السارق اليمنى ، والحج والعمرة . . إلخ . وهذا باختصار شديد حال العرب قبل ميلاد النبى ﷺ ، فساد في العقيدة وكفر بالله ، وفساد وانحلال في المجتمع والروابط الأسرية وكان الناس في حاجة شديدة إلى رسالة وإلى نبى يخرجهم من الظلمات إلى النور. بل إنهم كانوا ينتظرون رسولاً يأتى بشر به المسيح عليه السلام من بعده ، وكانت اليهود تعتقد إنه سيكون من بينهم فمنهم جاء كل الأنبياء فهم كما يقولون شعب الله المختار !! نعم . . كل الناس كانت تنتظر النبى المبعوث من الله تعالى ليهديهم إلى الصراط السوى والطريق المستقيم ، ويخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق - جل جلاله - . نعم . . كل الوقائع تقول إن العالم كان في حاجة إلى رسالة خاتمة وحقائق التاريخ تقول إن صاحب هذه الرسالة هو محمد بن عبد الله ﷺ . لقد اصطفاه الله من بين خلقه واختاره ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إليه وسراجًا منيرًا . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٤٥ - ٤٦] . وقال النبى ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم »[١] .

---

(١) أخرجه مسلم عن واثلة بن الأسقع ، باب فضل نسب النبى ﷺ .

الفصل الثاني :

الأسرة النبوية وميلاد النبى ﷺ

تعرف أسرة النبى ﷺ بالأسرة الهاشمية فجده الأكبر هو هاشم بن عبد مناف وكان ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمى هاشمًا إلا لهشمه الخبز .

وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار فحملت منه بعبد المطلب ومات قبل ميلاده .

* **عبد المطلب** : ولدته أمه (سلمى بنت عمرو) بعد وفاة أبيه وسمته شيبة لشيبة كانت في رأسه[1] ، وكان عبد المطلب شريفًا مطاعًا ذا فضل في قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه وكرمه وتكفل برعاية النبى ﷺ فيما بعد كما سوف نرى .

وقد حدث له أمران على جانب عظيم من الأهمية جدير بنا أن نذكرهما لعلاقتهما الوثيقة بمولد النبى ﷺ .

الأمر الأول : حفر بئر زمزم :

وخلاصته أنه أمر في المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام فحفر فوجد فيها الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أى السيوف والدروع والغزالين من الذهب ، فضرب الأسياف بابًا للكعبة ، وضرب في الباب

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ١٣٧ .

الغزالين وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب وقالوا له : أشركنا قال ما أنا بفاعل هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد ، ولم يرجعوا حتى أراهم الله في الطريق ما دلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة .

الأمر الثانى : وقعة الفيل :

ووقعة الفيل حدثت في العام الذى ولد فيه النبى ﷺ .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ١ - ٥] .

نعم . . كان ميلاده ﷺ بعدها بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا على الأكثر .

وخلاصته .. (أن أبرهة الصباح الحبشى ، النائب العام عن النجاشى على اليمن رأى العرب يحجون إلى الكعبه فأراد أن يصرف حج العرب إليها فبنى كنيسة كبيرة في صنعاء وسمع بذلك رجل من بنى كنانة ، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة ، ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندى - إلى الكعبة ليهدمها ، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة ، وواصل سيره حتى بلغ المغمس ، وهناك عبأ جيشه وهيأ فيله ، وتهيأ لدخول مكة فلما كان في وادى محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة

برك ، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحداً إلا صار تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل .

وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك)[١] .

(وكان لعبد المطلب عشرة بنين ، وهم :

الحارث ، والزبير ، وأبو طالب ، وعبد الله ، وحمزة ، وأبو لهب ، والغيداق ، والمقوم ، وصغار ، والعباس .

وقيل كانوا أحد عشر فزادوا ولداً اسمه قثم . وقيل غير ذلك .

وأما البنات فست وهن : أم الحكيم وبرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة)[٢] .

عبد الله والد الرسول ﷺ : أمه هى « فاطمة بنت عمرو » وكان عبد الله أحب أولاد عبد المطلب إلى قلبه وهو الذبيح ولتسميته بذلك قصة جدير بنا أن نذكرها لتكتمل الفائدة :

ذكرنا أن عبد المطلب نذر إن رزقه الله عشرة من الولد يمنعونه أى يحمونه ويعينوه ذبح أحدهم ولم يكن له يومئذ إلا الحارث فلما رزقه الله عشرة أبناء ، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه ، فكتب أسماءهم في القداح ، وأعطاهم قيم هبل ، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله فأخذه عبد المطلب

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٤٣ إلى ٥٦ ، والرحيق المختوم ص ٤٧ .
(٢) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٨ ، ٩ ، والرحيق المختوم ص ٤٨ .

وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه ،فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بنى مخزوم وأخـوه أبو طالب ، فقال عبد المطلب : فـكيف أصنع بنذرى فأشاروا عليه أن يأتى عرافـة فيستأمـرها فأتاها ، فأمرت أن يضرب القـداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل.

فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه فإن خرجت على الإبل نحرها ، فـرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشـر من الإبل حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل نحرها ، فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشـراً عشراً ولا تقع القرعـة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فـوقعت القرعة عليهـا فنحرت عنه ، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنهـا إنسانًا ولا سبعًا ، وكانت الدية في قريش وفي العـرب عشرًا من الإبل فجرت بعد هذه الوقـعة مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام .

وروى عن النبى ﷺ أنه قـال : « أنا ابن الذبيحين » . . يعنـى إسماعـيل ، وأباه عبد الله[1] .

آمنة بـنت وهب أم النـبى ﷺ : كانت أفـضل امرأة في قريش نسـبًا وشرفًا ، وأبوها سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا تزوجها عبد الله وبنى بها في مكة .

وقيل : إنه خـرج تاجراً إلى الشـام فأقبـل في عير قـريش فنزل المدينة وهو مريض فـتوفى بها ، وله إذ ذاك خمس وعـشرون سنة وكانت وفـاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ وقيل والله أعلم بل توفى بعد مولده بشـهرين ، وما ترك عبد الله خلفه لزوجته وابنه إلا خمسة أجمال ، وقطعـة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها (أم أيمن) وهى حاضنة رسول الله ﷺ .

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ١٥١ ، والرحيق المختوم ص ٤٩ .

مـولد النبى ﷺ :

في صبيــحة يوم الإثنين في شهر ربيع الأول عام الـفيل ولا يعرف تاريخ يوم مولده بالتحديد .

والاحتـفال بمولده يوم ١٢ ربيع أمر لم يثبت بل ذكر ابن الجوزى في صـفة الصفوة أربعة أقوال عن تاريخ ميلاده قال :

أحدها: أنه ولد لليلتين خلتا منه .

والثانى : لثمان خلون منه .

والثالث : لعشر خلون منه .

والرابع : لاثنتى عشر خلت منه[١] .

ومن ثم فالثـابت الصحـيح هو مولده يوم الإثنين من ربيع الأول عـام الفيل وتاريخ ميلاده أقوال تحتمل الخطأ والصواب والله أعلم بها .

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عـبد المطلب تبشره بميلاد حفـيده فسر بذلك ودعا الله وشكر له واخـتار له اسم محـمد وهو اسم لم يكن معـروفًا في العرب وختنه يوم سابعه ،وقيل إنه ولد مختونًا والله أعلم .

ويقول ابن القيم (في زاد المعاد) :

وروى في ذلك حديث لا يصح ذكـره أبو الفرج بن الجوزى في الموضـوعات وليس فيـه حديث ثابت ، وليس هذا من خـواصه ، فـإن كثيـرًا من الناس يولد مختونًا »[٢] اهـ .

(١) انظر صفة الصفوة لابن الجوزى ١ / ص ١٨ .

(٢) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ١ / ص ٢٥ ، ٢٦ .

رضاع النبى ﷺ ومراضعه :

أول من أرضعتـه وتشرفت بذلك أمه (آمنة بنت وهب) ثم ثويبـة مولاة أبى لهب عـمه التى أرضـعت معـه عمـه حمـزة كـذلك ، فكـان أخًا للنبى ﷺ من الرضاعة ، ثم أرضـعته بعد ذلـك حليمـة السعدية ، رضع مع ابنتهـا ، جذامة بنت الحـارث وهى التى اشـتهـرت باسم (الشيمـاء) فـهى أخت النبى ﷺ من الرضاعة .

وكذلك أرضـعت حليمة السعـدية ، عمه حـمزة بن عبد المطلب ، فـأصبح حمـزة رضيع رسـول الله ﷺ من جهـتين ، من جهـة ثويبة ومن جـهة حليـمة السعدية[1] .

ولقد رأت حليمة السعدية عندما تولت رضاعة النبى ﷺ آيات تدل على نبوته وها هي تخبرنا بنفسها قالت : أنها خـرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بنى سعـد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئًا . قالت : فخرجت على أتان[2] لى قمران ، معنا شارف لنا والله ما تبض بقطرة ، ومـا ننام ليلنا أجمع من صبـينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي مـا يغنيه وما في شارفنا ما يغـذيه ، ولكن كنا نرجوا الغيث والفـرج ، فخـرجت على أتانى تلك فلقد أدمـت بالركب حتى شق ذلك عليـهم ضعفًا وعجـفًا . حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فمـا منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قـيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجوا المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول : يتيم ! ومـا عسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه

(١) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ١ / ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) أتان : أي حمارة .

لذلك فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضـيعًا غيرى فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحـبى (زوجى) : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحـبى ولم آخذ رضيـعًا ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فـلآخذنه ، قال : لا عـليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجـعل لنا فيه بركة ،قالـت : فذهبت إليه ، فأخذته ، ومـا حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته في حـجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فـشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ،ثم نام ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حافل[1] .

فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًا وشبعًا ، فبتنا بخير ليلة ، فلما أصبحنا قـال لى زوجى : تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمـة مباركة ، قالت : فقلت والله إنى لأرجو ذلك قالت : ثـم خرجنا وركبت أنا أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب مـا لا يقدر عليه شئ من حمرهم ، حتى إن صـواحبى ليـقلن لى : يا ابـنة أبى ذؤيب ، ويحك ! أربعى[2] علينا أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهى هى فيقلن والله إن لها شأنًا .

قالت : ثـم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سـعد ومـا أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منهـا ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شـباعًا لبنًا[3] فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضـرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلـكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعًا لبنا .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حـتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب

(١) حافل : اجتمع فيه اللبن .
(٢) ربعت الإبل : سرحت في المرعى وأكلت وشربت كيف شاءت .
(٣) كثيرة اللبن .

شبابًا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا خفرًا (أى غليظًا شديدًا).

قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه .

وقلت لها : لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا »[1] .

حادث شق الصدر ووفاة أمه ﷺ :

ظل النبى ﷺ في بنى سعد في رعاية حليمة السعدية حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة من مولده وقع له حادث شق الصدر .

- روى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره - فقالوا : إن محمدًا قد قتل فاستقبلوه وهو متغير اللون)[2] .

وخشيت عليه حليمة فأعادته إلى أمه (آمنة) وظل معها حتى بلغ ستًا ورأت أمه أن تزور قبر زوجها عبد الله بن عبد المطلب في المدينة فخرجت وفي طريق عودتها بين مكة والمدينة أصابها مرض فماتت بالأبواء تاركة ابنها محمدًا ﷺ في رعاية جده عبد المطلب .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٢) أخرجه مسلم في باب الإسراء .

وفاة الجد الرحيم ورعاية عمه له ﷺ :

أحب عبد المطلب حفيده حبًا جمًا وكان يوقن بأن محمدًا ﷺ سوف يكون له شأن عظيم .

فأغدق عليه من حنانه وتكريمه ما لم يفعله مع أحد من أبنائه وعندما بلغ النبى ﷺ ثمانى سنوات مات الجد الرحيم وتولى رعايته وكفالته عمه أبو طالب حتى بلغ سن الرشد .

بل وبعثه الله تعالى وعمه على قيد الحياة وحاول النبى ﷺ جهده أن يهديه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام فأبى حتى مات للأسف الشديد على غير ملة الإسلام لما سبق في قضاء الله تعالى أنه يموت غير مسلم ولا راد لقضاء الله جل وعلا .

وظل أبو طالب الحصن الحصين للنبى ﷺ الذى يمنع قريش من التعرض له بالأذى ودافع عنه بكل ما استطاع من نفوذ وقوة .

حديث بحيرا الراهب :

لما خرج أبو طالب إلى الشام وبها راهب يقال له : « بحيرا » في صومعة له وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه ، فلما نزلوا بحيرا وكانوا كثيرًا ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريبًا من صومعته. قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا ، فصنع لهم طعامًا ثم دعاهم ، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت شجرة ، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبى ﷺ حين استظل تحتها

فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته ، وأمر بذلك الطعام فأتي به وأرسل إليهم. فقال : إنى قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش ، وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيرًا ولا كبيرًا ، حرًا ولا عبدًا ، فإن هذا شيء تكرمونني به ،فقال رجل : إن لك لشأنًا يا بحيرا ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم ؟

قال : فإنى أحببت أن أكرمكم فلكم حق .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ليس في القوم أصغر منه في رحالهم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم ير الصفة التى يعرف ويجدها عنده ، وجعل ينظر فلا يرى الغمامة على أحد من القوم ، ورآها متخلفة على رأس رسول الله ﷺ فقال بحيرا : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . قالوا : ما تخلف أحد إلا غلام هو أصغر القوم سنًا في رحالهم .

فقال : ادعوه فليحضر طعامى ، فما أقبح أن يتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم ، فقال القوم : هو والله أوسطنا نسبًا وهو ابن أخى هذا الرجل يعنون أبا طالب وهو من ولد عبد المطلب .

فقال الحارث بن عبد المطلب : والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه وجعل بحيرا يلحظ لحظًا شديدًا ، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، فلما تفرقوا قام إليه الراهب فقال : يا غلام أسألك باللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال رسول الله ﷺ : لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئًا بغضهما قال : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

قال : سلنى عما بدا لك .. فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده ، ثم جعل ينظر بين عينيه ، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة التى عنده ، فقبل موضع الخاتم وقالت قريش : إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا .

وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه ، فقال الراهب لأبى طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال أبو طالب : ابنى . قال : ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا .

قال : فابن أخى .. قال فما فعل أبوه ؟ قال هلك وأمه حبلى به قال : فما فعلت أمه ؟ قال : توفيت قريبًا .

قال : صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنه بغيًا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا ، واعلم أنى قد أديت إليك النصيحة .

فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعًا وكان رجال من يهود قد رأوا رسول الله ﷺ ، وعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهى وقال لهم : أتجدون صفته ؟ قالوا : نعم .. قال : فما لكم إليه سبيل ، فصدقوه وتركوه . ورجع أبو طالب فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه)[1] .

وتمر الأيام حتى أصبح عمر النبى ﷺ خمسة وعشرون عامًا وكان شابًا قويًا أمينًا مستقيمًا لا يشرب الخمر ولم يسجد لصنم ولم يحلف باللات والعزى ، ووصفه قومه بالصادق الأمين ، لما يتصف به من الصفات والشمائل الجليلة وكانوا يضعون عنده أغلى ما يملكون أمانة وقلوبهم مطمئنة إليه .

(١) صفة الصفوة ١ / ٢٤ ، وسيرة ابن هشام ١ / ١٨٠ .

النبى ﷺ يتاجر بمال خديجة :

كانت خديجة رضى الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه ببشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قومًا تجارًا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدما الشام)[1] .

وكانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنها امرأة في الأربعين من عمرها أرملة تزوجت قبله مرتين وكانت ذات حسب وشرف وجاءها سادات قريش وزعمائها يطلبون يدها ، فكانت ترفض لما تعلمه من طمعهم في المال والشرف فقط .

وعندما عاد النبى ﷺ إلى مكة رأت في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر من قبل هذا وأخبرها غلامها ميسرة بما رآه منه ﷺ من شمائل وصفات وأمانة وما عهد عليه كذبًا ولا نقصًا في الميزان بل رآه سمحًا إذا باع .. سمحًا إذا اشترى .. سمحًا إذا قضى ووجدت خديجة رضى الله عنها فيه من الصفات الحميدة ما يجعله خير زوج فحدثت صديقة لها اسمها « نفيسة » بما في نفسها فذهبت إليه وعرضت عليه أن يتزوج خديجة فوافق النبى ﷺ وذلك بعد عودته من الشام بشهرين . نعم طلبت خديجة من النبى ﷺ أن يكون زوجًا لها !!

هل لأنه واسع الثراء ؟ أبدًا فهى امرأة تملك من المال الكثير .. هل تزوجته لحسبه وشرفه ؟! ..

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

أبدًا فهى ذات الحسب والشرف وإنما اختارته لصدقه وأمانته وكيف لا والله تعالى وصفه بقوله : ﴿ وإنكَ لعَلى خُلق عَظيم ﴾ [القلم : ٤] .

وتم الزواج المبارك وأصدقها النبى ﷺ عشرين بكرة ، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت . وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم فأمه هى ماريا القبطية رضى الله عنها .

فولدت خديجة له أولاً القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم في صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ سوى فاطمة رضى الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .

بناء الكعبة وقضية التحكيم :

عندما بلغ النبى ﷺ عمره (٣٥) سنة أى قبل بعثته بخمس سنوات قامت قريش ببناء الكعبة فلقد كانت كما بناها إسماعيل عليه السلام تسعة أذرع ، ولم يكن لها سقف وكان بها في الداخل كنوز سرقها اللصوص وأصبحت الكعبة تحتاج إلى ترميم وخافت قريش على الكعبة وما لها في قلوبهم من مكانة ومهابة فخافوا أن تنهارَ واضطرت إلى تجديد بنائها .

واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها وترميمها إلا طيبًا ، فلا يدخلوا فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس وكانوا يهابون هدمها فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم .

ثم أرادوا الأخذ في البناء ، فجزأوا الكعبة وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها،

فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بناء رومى اسمه « باقوم » .

ولما بلغ البنيان موضع الحجرِ الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا ، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون هو رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضيناه ، هذا محمد .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداءًا ، فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه ﷺ)[1] .

وهناك حادثة هامة حدثت للنبى ﷺ عند بناء الكعبة ، جدير بنا أن نذكرها هنا .

* روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : (لما بنيت الكعبة ذهب النبى ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبى ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة فخر على الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: إزارى ، إزارى فشد عليه إزاره)[2] .

وفي رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٢ / ١٩٢ ، وصحيح البخارى باب فضل مكة وبنيانها ١ / ٢١٥ ، والرحيق المختوم ص ٥٨ .
(٢) أخرجه البخارى في باب بنيان الكعبة .

الفصل الثالث :

بدء الوحى والأمر بالتبليغ

تمر الأيام والأحداث والحبيب ﷺ يعتزل ما يفعله قومه من سجود وذبح ودعاء للأصنام والآلهة وكثرة خلوته بغار حراء في أحد جبال مكة يصعد ومعه زاده ويقضى وقته في التأمل والتفكر فيما في الكون من إبداع وهو غير مطمئن لما عليه قومه من شرك وكأنما يقول : دلنى عليك يا رب السماء . . دلنى عليك يا رب الأرض ، دلنى عليك يا من تسير الرياح . . دلنى عليك يا من تضع كذا وكذا .

وكان قبل خلوته تأتيه الرؤية) مثل فلق الصبح وهو أول ما بدأ من الوحى ، ثم عندما بلغ الأربعين وبينما هو يتأمل في الغار وبالتحديد في شهر رمضان[1] لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

نزل عليه جبريل عليه السلام بآيات من القرآن. . ولندع أمنا عائشة تخبرنا بكيفية بدء الوحى كما جاء في صحيح البخارى .

قالت : (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو

---

(١) لقد اختلف المؤرخون في ذلك فذهبت طائفة إلى أنه نزل عليه في شهر ربيع الأول ، وطائفة في شهر رمضان ، وقيل في شهر رجب وما ذكرناه هو ما نستريح إليه ، والله أعلم .

في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ . فقلت: ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني[١] ، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [العلق : ١ - ٥] .

قال : فرجع بهما ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[٢] .

فقال : يا خديجة ما لى فأخبرها الخبر، فقال: قد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل[٣] ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمى - فقالت له خديجة : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعًا ، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ أومخرجى هم؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثلما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى)[٤] .

---

(١) غطنى : ضمنى إليه وعصرنى كما تضم الأم ولدها إلى صدرها رحمة وشفقة عليه .
(٢) الروع : الخوف والفزع .
(٣) الكل : التعب .
(٤) أخرجه البخارى في كتاب التفسير وتعبير الرؤيا .

فتور الوحى وعودته :

تمر الأيام ويزداد شوق النبى ﷺ لرؤية جبريل عليه السلام ولما طالت المدة وفتر الوحى حزن النبى ﷺ وأصابه ذلك بالألم النفسى .

وجاء في البخارى في كتاب التعبير ما نصه : (وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنًا عدا منه مرارًا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقًا ، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك)[1] .

نزول الوحى مرة ثانية :

جاء في البخارى عن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه وهو يحدث عن فترة الوحى فقال في حديثه (بينا أنا أمشى ، إذا سمعت صوتًا في السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر : ١ - ٥] ، فحمى الوحى وتتابع)[2] .

ولقد كان للوحى مراتب ذكرها ابن القيم في زاد المعاد فقال ما مختصره :

إحداها : الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

---

(١) صحيح البخارى كتاب التعبير - باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة .

(٢) أخرجه البخارى في كتاب بدء الوحى .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته) .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه فيلتبس به الملك حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة كما كلم الله موسى بن عمران وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء . . . .)[1] .

الأمر بالتبليغ والسابقون إلى الإسلام :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *

---

(١) انظر زاد المعاد ١ / ١٨ ، والرحيق المختوم ص ٦٥ .

والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ١ - ٧] . أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتبليغ والدعوة إلى عبادته وتوحيده ، والقيام بأعباء الرسالة فقام بها الحبيب ﷺ خير قيام وظل يدعو إلى الله أكثر من عشرين سنة وبالتحديد ثلاث وعشرون سنة. منهم ثلاث عشرة في مكة وعشر سنوات في المدينة ما استراح الحبيب لحظة . . ما فتر عن الدعوة أبدًا وظل قائمًا ملبيًا أمر الله له بالتبليغ بلا كلل أو ملل ، صابرًا محتسبًا أجره على الله حتى أدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وارتفعت راية الإسلام خفاقة عالية في جميع أرجاء المعمورة.

وأول من آمن بدعوته زوجته وأم أولاده (خديجة بنت خويلد) رضى الله عنها ، التي وقفت معه وواسته وساعدته بنفسها ومالها وآمنت بدعوته وصدقته ولهذا ظل النبي ﷺ يتذكر لها هذا الموقف العظيم حتى شعرت أمنا عائشة رضى الله عنها أحب أزواج النبي ﷺ إلي قلبه بالغيرة كلما ذكرها وأثنى عليها لما قدمته في سبيل الدعوة إلى الله تعالى . وها هي تخبرنا بنفسها عن مكانة « خديجة » رضى الله عنها في قلب النبي ﷺ قالت : (كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء ، فذكرها يومًا من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزًا قد أخلف الله لك خيرًا منها ، قالت : فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أخلف الله لي خيرًا منها ، لقد آمنت إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله عز وجل أولادها إذ حرمني أولاد النساء قالت : فقلت بيني وبين نفسي : لا أذكرها بسوء أبدًا)[1] .

وكان أول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب إذ أسلم وعمره عشر سنين وصلى مع رسول الله ﷺ مختفين بصلاتهما عن أعين قريش .

---

(١) أخرجه أحمد وإسناده حسن .

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق رضى الله عنه وكان أحب خلق الله إلى قلب النبى ﷺ وكان إسلامه خير وبركة فقد استطاع بما له من محبة في قلوب الناس وخلق حسن أن يقنع من يثق به من قومه للإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ وعبادة الواحد الأحد ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله وهؤلاء الخمسة من المبشرين بالجنة وكذلك أول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة رضى الله عنه الذى تبناه النبى ﷺ في الجاهلية وصار (زيد بن محمد) وهو حب رسول الله ﷺ .

وكان من أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشى ثم تلاه أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد بن زيد ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت وعبد الله ابن مسعود وخلق سواهم وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً ، وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر)[1] . ثم دخل الناس بعد ذلك أفواجاً وكان النبى ﷺ يجتمع بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم ويعلمهم أمور دينهم وتتابع الوحى في وصف نعيم الجنة وعذاب النار لتزيد عزيمة المسلمون للفداء والتضحية والفوز بالشهادة .

الجهر بالدعوة :

أمر الله تعالى النبى ﷺ بالجهر بالدعوة وإنذار عشيرته ، فقال جل شأنه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥ : ٢٦٢ ؛ والرحيق المختوم ص ٧١ .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤].

وكان المسلمين قـد أصبحت لهم قـوة بإسلام حمزة عم النبى ﷺ وعـمر بن الخطاب واكتمل عددهم نيفًا وأربعين رجلاً وامرأة .

وصعد النبى ﷺ على جبل الصفا ونادى بأعلى صوته : (يا بنى فهر . . يا بنى عدى . . لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

قالوا : نعم ، مـا جربنا عليك إلا صدقا . قـال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ [المسد : ١][1] .

انفجر الموقف كله بجـهر النبى ﷺ ودعوته إلى التوحيـد وترك عبادة الأوثان وتعرض هو ومن آمن بدعـوته إلى أبشع أنواع التعذيب وجن جنون قـريش عندما وجدوا اسـتجابة الكثير لدعوته الأمـر الذى جعلهم يرسلون رجالاً من أشـرافهم وسادتهم إلى أبى طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا وردهم ردًا جميلاً فانصرفـوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يُظهر دين الله ويدعو إليه)[2] .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٦٥ .

الوليد بن المغيرة رسول قريش :

(اجتمعت قريش على بكرة أبيها لمعرفة ما يجب عمله أمام دعوة النبى ﷺ التى يزيد أتباعه يومًا بعد يوم وخافت من دعوته أن تنتشر عند حضور وفود العرب للحج الذى اقترب موسمه وأرادوا كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى يجهضوا دعوته فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة . فقال : اجمعوا فيه رأيًا واحدًا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا .

قالوا : فأنت فقل ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ؛ لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : فما نقول ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا على ذلك)[1] .

ومع انتشار الدعوة عرضت قريش عشرات العروض على النبى ﷺ فيأبى إلا نشر دين الله وتسفيه أوثانهم فتركوا هذه المحاولات ولجأوا إلى التعذيب والترهيب

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٧١ .

والتنكيل ليرتد من آمن بدعوته .

- وها هو بلال بن رباح رضى الله عنه يتعرض إلى أبشع أنواع التعذيب من سيده أمية بن خلف فقد كان عبداً مملوكًا له ، وكان يعذبه بإلقائه في الرمضاء على وجهه وظهره ، ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى .

وبلال صابر لا يفتر لسانه عن قول : أحدٌ أحدٌ حتى أعتقه أبو بكر بعد أن اشتراه من أمية بن خلف .

ومن المعذبين أيضًا عمار وأمه ووالده ياسر كانوا يعذبونهم بحر الرمضاء ويمر بهم النبى ﷺ ، وهم يعذبون . فقال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

فمات ياسر من العذاب .

وأما سمية فقد أغلظت القول لأبى جهل لعنه الله ، فطعنها بحربة في قُبلها فماتت شهيدة وكانت أول شهيدة في الإسلام .

أما عمار فقد شدوا عليه العذاب حتى أنهم كانوا يغمسون وجهه في الماء حتى يختنق ويقولون له: لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً ، فلما فعل ما طلبوه منه تركوه ، ويمر عليه النبى ﷺ فوجده يبكى فسأله : « ما وراءك » فقال : شر يا رسول الله كان الأمر كذا وكذا .

فقال : كيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئنًا بالإيمان فقال : « إن عادوا يا عمار فعد »[2] .

وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا** ﴾ [النحل : ١٠٦] .

(١ - ٢) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٣١٩ ، ٣٢٠ .

وغيرهم من المستضعفين في الأرض الذين لا حول لهم ولا قوة إلا بالله تعرضوا لأشد أنواع العذاب والاضطهاد وهم صامدون على أقدارهم حتى النبى ﷺ لم يسلم من التعرض له بالأذى رغم حماية عمه أبي طالب له .

- **من ذلك** : أن أبا لهب كان قد زوج ولديه عتبة وعتيبة بنتى رسول الله ﷺ رقية ، وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة ، حتى طلقاهما .

- **ومن ذلك** : عندما مات عبد الله الابن الثانى لرسول الله ﷺ هرول أبو لهب إلى رفقائه يبشرهم بأن محمداً صار أبتر .

فنزل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ [الكوثر : ١ - ٣] .

- **ومن ذلك** : ما فعلته امرأة أبى لهب أم جميل أروى بنت حرب - أخت أبى سفيان - كانت لا تقل عداوة وحقد للنبى ﷺ فكانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلاً .

وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها وتفترى عليه ﷺ ولذلك وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ .

[المسد : ١ - ٥] .

فكانت هى وزوجها في النار وبئس المصير .

- **ومن ذلك** : ما فعله عقبة بن أبى معيط (لعنه الله) لقد وضع رحم شاة مذبوحة بين كتفى رسول الله ﷺ وهو يصلى عند البيت ورجال قريش يضحكون ويتمايلون فرحًا وشماتة برسول الله ﷺ والرسول ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته

فاطمة وطرحته عن ظهره الشريف فرفع رأسه ثم دعا وقال : اللهم عليك بقريش (ثلاث مرات) .

فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم وقال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة . ثم سمى اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط وماتوا جميعًا في قليب بدر)[1] .

وهكذا عشرات المواقف يتعرض فيها النبي ﷺ للأذى من سفهاء قريش فكفاه الله تعالى منهم فقال جل شأنه : ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الحجر : ٩٥ - ٩٦] .

وقال تعالى يخبر عما اتفق عليه المشركين على وصفه ﷺ بأنه ساحر: ﴿ **وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾ [ص : ٤] .

اول هجرة في الإسلام :

عندما اشتد اضطهاد قريش للمسلمين رأى النبي ﷺ أنه غير قادر على حمايتهم فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة وهاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكونًا من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ .

وقد قال النبي ﷺ فيهما : « **إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام** » .

وعادوا إلى مكة ظنًا منهم أن المشركين قد أسلموا ولن يتعرضوا لهم بالأذى

---

(١) انظر نص الحديث في البخاري - كتاب الوضوء ، باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة .

وسبب هذه الشائعة أمر سوف نذكره الآن .

– روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس »[١] .

نعم ما أروع كلام الله تعالى وما أعظمه والنبي ﷺ يتلوه بنفسه في جوف الكعبة بين جمع كبير من قريش يضم ساداتها وكبراؤها لقد أخذ النبي ﷺ يتلو سورة النجم وكان الكفار لم يسمعوا كلام الله من قبل بتدبر وفهم لأن جل همهم تكذيبه وعدم الإنصات إليه كما قال تعالى : ﴿ **لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فصلت : ٢٦] .

فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة وسمعوا كلام الله تعالى وعظمة آياته وبيانه أخذ لبهم وبقى كل واحد منهم مصغيًا إليه فلما قرأ النبي ﷺ السجدة: ﴿ **فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** ﴾ [النجم : ٦٢] . ثم سجد ، سجد معه المشركون حتى أن الوليد ابن المغيرة وكان كبير السن أخذ كفًا من البطحاء وسجد عليه .

ولما أحسوا أن ما ارتكبوه يخالف ما يفعلوه ويقولوه !!

سقط في أيديهم وافتروا على رسول الله ﷺ بأنه عطف على أصنامهم ومدحهم وأنه قال عنها : (تلك الغرانقة العلى وإن شفاعتهم لترتجى) .

نعم جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ ولقد انتشر الأمر وسمع به الجميع حتى بلغ بلاد الحبشة وعلم به المهاجرون هناك وظنوا أن المشركين سوف يكفون عن اضطهادهم وتعذيبهم ، ولكن ما أن اقتربوا من مكة حتى تبين لهم أن إسلام أهل مكة باطل وإشاعة وأنهم ما زالوا على الكفر والشرك وظلوا في مكة يتلقون الأذى ويعذبون ويضطهدون .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب (فاسجدوا لله واعبدوا) .

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

بقى النبى ﷺ يدعو إلى ربه سرًا وجهرًا صابرًا موقنًا بنصر الله تعالى له وظل المشركين يتعرضون له بالأذى حتى إنهم وثبوا يومًا عليه وثبة رجل واحد يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا .

فيقول : « أنا الذى أقول كذلك » . . فأخذ عقبة بن أبى معيط بردائه وقام أبو بكر وسارع لنجدته ، وهو يبكى ويقول : ويلكم !! أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله .

ثم انصرفوا بعد ما نالوا من الصديق ما نالوا رفسًا بأرجلهم وضربًا بأيديهم أخزاهم الله .

عام الحزن :

اشتد مرض أبي طالب عم النبى ﷺ وعلم به كفار قريش فجاءوا وكان فيهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه فقال : يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك ، وليأخذوا منك ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه ، من عدم تعرض كل فريق للآخر ، فقال لهم رسول الله ﷺ : أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وفي لفظ أنه قال مخاطبًا أبى طالب : أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب

وتؤدى إليهم بها العجم الجزية .

فلما قال هذه المقالة ، توقفوا وتحيروا ، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة ، ثم قال أبو جهل : ما هى وأبيك ؟ لنعطيكها وعشرة أمثالها قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا ؟

إن أمرك لعجب .

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ .

[ص : ١ - ٧] .

- وروى البخارى في صحيحه عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل ، فقال : أى عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب فقال النبى ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] ونزلت ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1] [القصص : ٥٦] .

---

(١) أخرجه البخارى في باب قصة أبى طالب .

- كما أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ وذكر عنده عمه فقال : لعل تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه[١] . ومات أبو طالب وبعد وفاته بنحو شهرين أو ثلاثة توفيت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ولها خمس وستون سنة ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره وقد مضى من النبوة عشر سنين[٢] .

وسمى هذا العام بعام الحزن .

ومن الطبيعى بعد أن مات أبو طالب الذى كان عضدًا قويًا لرسول الله ﷺ وزوجته (خديجة) رضى الله عنها المؤمنة القوية التى كانت تعينه وتشجعه على الصبر والاحتمال . . . من الطبيعى بعد ذلك أن يشتد أذى المشركين للنبى ﷺ وينالوا منه ما لم يستطيعوه من قبل وهذا ما حدث فقد دخلوا داره ورموا بالقذر بعد أن كانوا يفعلون ذلك خارج بيته وفي طريقه .

واستمرت أذيتهم للنبى ﷺ واستمر النبى ﷺ في دعوته لا يخاف في الله لومة لائم وذهب لأهل الطائف يدعوهم فماذا حدث ؟!!

النبى ﷺ يدعو أهل الطائف :

دعى النبى ﷺ أهل الطائف للإيمان بالله فآذته وأغرت به سفهاءها يرمونه بالأحجار حتى أدموا عقبيه ، وألجأه ذلك إلى حائط بستان لابنى ربيعة عتبة وشيبة على بعد ثلاثة أميال من الطائف وعمد ﷺ إلى ظل شجرة عنب فجلس تحتها فلما اطمأن وسكنت نفسه قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى

(١) أخرجه البخارى في باب قصة أبى طالب .
(٢) انظر صفة الصفوة ١ / ٢٥٧ .

إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولما فرغ من مناجاته ربه رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له (عداس) وقالا له خذ قطفًا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلا : (بسم الله) ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت ؟ قال : أنا نصرانى من أهل (نينوى) فقال رسول الله ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى قال له وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبيًا وأنا نبى ، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها . ونظر ابنا ربيعة أحدهما للآخر وقال له : أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما عداس قالا له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى ، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى ، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه .

ورجع النبى ﷺ إلى مكة عائدًا كئيبًا محزونًا كسير القلب ، فأنزل الله تعالى عليه جبريل عليه السلام كبلسم شافى لهذا الحزن والألم ، لما تعرض له من أهل الطائف . وها هى عائشة أم المؤمنين تحدثنا أنها قالت للنبى ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد

أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يا محمد لك ما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (أى لفعلت) فقال ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا[1] . وبينما هو في طريقه إلى مكة عائدًا وفي مكان يقال له « وادى نخلة » أقام هناك فترة وخلال إقامته بعث الله إليه نفرًا من الجن يستمعون إليه وهو يصلى فكان منهم ما أخبر الله عنهم في كتابه الكريم فقال جل شأنه : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣١].

ولم يعرف النبى باستماع الجن له وإنما الله أعلمه بذلك لتبشيره وذهاب حزنه وهمه .

ثم كانت المعجزة الكبرى التى بدأت بعدها مصاعب الدعوة وتبعاتها أكثر مما كانت من قبل وزادت من قوة النبى ﷺ وشجاعته ورفعت معنوياته هو ومن آمن معه . وذهبت تمامًا بكل الآلام والأحزان التى مرت به ألا وهى معجزة الإسراء والمعراج .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخارى في كتاب بدء الخلق ، ومسلم باب ما لقى النبى من أذى المشركين والمنافقين .

الفصل الرابع :

معجزة الإسراء والمعراج

اختلف في تعيين وقت وتاريخ الإسراء بالنبي ﷺ وذكر ابن القيم في زاد المعاد عدة أقوال ، كما اختلف في إسراء النبي ﷺ بجسده أم روحه ؟

قال ابن القيم :

أسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبًا على البراق صحبه جبريل عليهما الصلاة والسلام فنزل هناك وصلى بالأنبياء إمامًا وربط البراق بحلقة باب المسجد[1] .

وعلى كل حال لن يفيدنا ترجيح رأي على رأي فالذي يهمنا ذكره هنا هو ما ثبت عن الإسراء في القرآن والسنة الصحيحة وفيهما الكفاية لندرك عظمة هذه المعجزة وتأثيرها فيما بعد على حياة المصطفى ﷺ وأتباعه من المسلمين .

قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

[الإسراء : ١] .

– وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال : (بينما أنا في الحطيم ، وربما قال : في الحجر ، مضطجعًا إذ أتاني آت ، فقال وسمعته يقول : فشق ما بين هذه إلى هذه . . فقلت للجارود وهو جنبي ما يعني به ؟ قال : من ثغرة نحره إلى شعرته ، وسمعته يقول من قصه

---

(١) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١ / ٦٩ .

إلى شعرته ، فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة ؟

قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه .

فانطلق بى جبريل حتى أتى **السماء الدنيا** فاستفتح قيل ، من هذا ؟ قال جبريل : قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه . قال : نعم، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثانية : فاستفتح قيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به فنعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت إذا بيحى وعيسى ، وهما ابنا خالة ، قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت عليهما ، فردا ثم قالا : مرحبًا بالأخ الصالح ، والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة : فاستفتح جبريل ، قيل : منَ هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه . قال : نعم، قيل : مرحبًا به فنعم المجيء جاء ، ففتح فلما خلصت إذا يوسف . قال : هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت علية فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى الرابعة : فاستفتح . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن مَعك ، قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء . فلما خلصت إذا إدريس . قال : هذا إدريس

فسلم عليه فسلمت فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح ، والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة : فاستفـتح . قيل : من هذا ؟ قال : جبـريل ، قيل : ومن معك ؟ قـال : محمـد . قيل : وقد أرسل إليـه ؟ قال : نعم، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت إذا هارون ، قال : هذا هارون فسلم عليـه ، فسلمت عليه ، فـرد ثم قال : مرحـبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السـماء السادسة : فاستفـتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبـريل ، قيل : ومن معك ؟ قـال : محمـد ، قيل : وقد أرسل إليـه ؟ قال : نعم، قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت إذا موسى ، قال : هذا موسى فـسلم عليه ، فـسلمت عليـه فرد ثم قال : مـرحبًا بالأخ الصـالح والنبى الصالح ، فلما تجاوزت بكى فقـيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلامًا بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى .

ثم صعد بى إلى السـماء السابعة : فاستفتح جـبريل ، قيل : من هذا قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محـمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قـيل : مرحـبًا به فنعم المجئ جـاء فلمـا خلصت إذا إبراهيم . قـال : هذا أبوك إبراهيم فسلـم عليه فسلمت عليـه ، فرد السلام ثـم قال : مرحـبًا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى : وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : أما الباطنان : فنهـران في الجنة ، وأما الظاهران : فالنيل والفرات ثم رفع لى البيتُ المعـمور يدخله كل يوم سـبعون ألف ملك ثم أتيت بإناء من خـمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن .

قال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك ، ثم فرض علي الصلوات خمسون صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع لي عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت ؟ فقلت : بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك . قال : سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم . قال : فلما جاوزت ناداني مناد : أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي)[1] .

وهناك روايات أخرى عن هذه المعجزة وألفاظها متقاربة ، كما أن هناك روايات ضعيفة أو موضوعة لا يجب أن يأخذ بها المسلم ، وفي الصحيحة ما يكفي .

ومما يجب أن يقال بمناسبة ذكر الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ رأى مرتين جبريل عليه السلام على صورته التي خلقها الله عليه كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ - ١٧] .

وليس الله تعالى كما يقول البعض في تفسير هذه الآية وقد ثبت في الصحيح

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم ٢ / ٤٧ ، ٤٨ .

أنه جبريل عليه السلام ، فرؤية الله تعالى ، لا تكون إلا في الآخرة وليس في الدنيا . وثبت في الصحيح أيضًا عن أبى ذر أنه سأله هل رأيت ربك ؟ فقال نور أنى أراه . .

قد يقول قائل ولكن ثبت عن ابن عباس أنه ﷺ قد رأى ربه !!

* قال ابن القيم في زاد المعاد : (قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضًا لهذا ولا قوله رآه بفؤاده وقد صح عنه أنه قال: « رأيت ربى تبارك وتعالى » ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه ، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى وقال : نعم رآه حقًا فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد ولكن لم يقل أحمد رحمه الله تعالى إنه رآه بعينى رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه ولكن قال مرة رآه ومرة قال رآه بفؤاده فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعينى رأسه)[1] اهـ .

ثم عرج بالنبى ﷺ ورأى من آيات ربه الكبرى ما رأى ، وكان قد رأى في ذهابه وإيابه عيراً لأهل مكة وقد دلهم على بعير لهم وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ثم ترك الإناء مغطى ، وصار ذلك دليلاً على صدق معجزته . .

وفي الصباح قرر أن يخبر قومه بإسرائه إلى الأقصى وصلاته هناك بالأنبياء عليهم السلام أجمعين .

ومر به أبو جهل وهو جالس في المسجد الحرام فقال له مستهزئًا :

هل استفدت الليلة شيئًا ؟ قال : نعم : أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس ، قال أبو جهل : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟!

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم ٢ / ٧٠ .

قال النبى ﷺ : نعم فقال أبو جهل : أخبر قومك بذلك ؟

فقال النبى ﷺ : نعم . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤى ، هلموا فأقبلوا ، فحدثهم النبى ﷺ بمعجزة الإسراء والمعراج .

فصدقه من صدقه وهداه الله إلى الإيمان به ، وكذبه من اتبع هواه وضل عن سواء السبيل .

وأسرع أبو جهل وغيره من المشركين على الفور إلى أبي بكر لما يعلمونه من حبه وصحبته للرسول ﷺ فهو رفيقه قبل البعثة وأول من آمن بدعوته من الرجال بعد بعثته ﷺ ، وأخبره أبو جهل بحديث الإسراء .

فقال : (إن كان قال فقد صدق . فيقول أبو جهل : تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟ قال أبو بكر : أنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، من خبر السماء في غدوة أو روحة . .

ثم ذهب إلى النبى ﷺ يستمع إليه وهو يحدث الناس ويصف المسجد الأقصى وأبو بكر يقول : صدقت أشهد أنك لرسول الله فسماه النبى ﷺ يومئذ الصديق)[1] .

ثم أخبرهم النبى ﷺ بما رآه في ذهابه وإيابه عن العير التى ضلت وأرشد أصحابها إليها وأخبرهم عن وقت قدومها وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها وكان الأمر كما قال ومع ذلك لم يزدهم هذا إلا نفوراً وأبى الظالمون إلا كفوراً .

وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين .

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر نص الحديث في البخارى .

الفصل الخامس :

بيعة العقبة وطلائع الهجرة

استمر النبى ﷺ على دعوته ، واستمرت قريش على جورها وطغيانها واضطهادها له وللمسلمين .

وفي موسم الحج أخذ النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويدعوهم إلى الله تعالى ولما أراد الله جل شأنه إعزاز نبيه وإظهار دينه أسلم بعضهم وبايعوه عند العقبة وكانوا من الخزرج ويقيمون في المدينة وواعدوا الرسول ﷺ بإبلاغ رسالته ونصر دينه وقاموا بمهمتهم خير قيام ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ حتى كان العام المقبل أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأنصار فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة وهى العقبة الأولى فبايعوه وكان منهم عبادة بن الصامت وها هو يخبرنا بنفسه عن هذه البيعة .

قال رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ قال : « تعالوا بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ومن أصاب شيئًا فستره الله ، فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ، قال : فبايعته وفي نسخة فبايعناه على ذلك)[١] .

وبعث النبى ﷺ معهم أول سفير في الإسلام (مصعب بن عمير) رضى الله عنه ليعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في الدين وليقوم بنشر الإسلام في المدينة .

(١) أخرجه البخارى في باب حلاوة الإيمان وباب وفود الأنصار .

ولقد نجح في ذلك نجاحًا عظيمًا وأسلم على يديه الكثير ثم عاد إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية .

بيعة العقبة الثانية :

بعد عدة مواسم للحج وبالتحديد في السنة الثالثة عشرة من النبوة حضر لأداء مناسك الحج سبعـون رجلاً وامرأتان من المسلمين من أهل المدينة واجتـمعوا بالنبى ﷺ بعيدًا عن عيـون المشركين وجاء معه عمه العبـاس وتمت البيعة وها هى بنودها كما في حديث رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن جابر رضىُ الله عنه قال : قلنا يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال : « على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليـسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقومـوا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصـرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة »[1] .

ثم عادوا إلى المدينة يترقـبون هجرة الحبيب المصطفى ﷺ الذى أمـر أصحابه بالهجرة إليها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكانت هجرتهم ذات تـضحية عظيمـة فليس مجرد النجاة بأنفـسهم فقط بل ترك الأموال والـديار والأهل والعشـيرة ، هذا فضـلاً عن تعرضـهم للمـوت قبل وصولهم للمدينة ؛ لأن قـريشًا لن تتركهم بأى حال من الأحوال فـهى عاجزة عن ردهم عن دينهم في أرضـها فـماذا تـستطيع بعـد هجرتهم في مكان أهلهـا على استـعداد لنصرهم ومحـاربتهم . كما أن قـريشًا كانت تعلم ما للمـدينة من موقع استـراتيجى تمر عليهـا تجارتهم ووجود المسلمين فـيها يجـعل تجارتهم في خطر . ولكن مع كلٍّ هذا كان لابد من الهجرة وبدأت طلائع الهجرة .

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان .

طلائع الهجرة إلى المدينة :

كان أول المهاجرين أبو سلمة وزوجته أم سلمة (أم المؤمنين بعد موت زوجها) رضى الله عنهما ومعهما ابنهما .

فلما أجمع أبو سلمة على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟! ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوا الراحلة وعليها امرأته وولده وغضب عند ذلك رجال من رهط أبى سلمة فقالوا : والله لا نترك ولدنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا الطفل حتى خلعت يده وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبس بنو المغيرة أم سلمة عندهم .

ثم هاجر بعد ذلك صهيب وضحى بماله كله حتى يخلى سبيله لقريش فتركوه بعد أن دلهم على مكانه وفيه قال النبى ﷺ : « ربح البيع صهيب .. ربح البيع صهيب » ونزل فيه قرآن يتلى إلى اليوم وهو قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

وتتابعت الهجرة حتى استشعرت قريش بالخطر واجتمعوا في دار الندوة للتشاور وإبداء الرأى وكان اجتماع غير عادى ضم جميع نواب القبائل القرشيين فضلا عن الشيطان نفسه !!

نعم لقد وقف اللعين في سورة شيخ من نجد أمام دار الندوة وأقنعهم بدخوله معهم وحرضهم ونصحهم حتى اتفقوا على قتل النبى ﷺ قبل أن يهاجر ويجمع حوله أصحابه وأتباعه في المدينة ، فيصبح لهم قوة تزلزل كيان قريش وتهدد تجارتها .

وكان الرأي الذي واتفقوا عليه وأيده الشيطان هو رأي أبي جهل فقد قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه على القبائل جميعًا .

فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا فيرضون منا بالعقل (أي الدية) فنعقله لهم فعندئذ قال إبليس في صورة الشيخ النجدي : هذا هو الرأي الذي لا أرى غيره »[1] .

بدأوا في تنفيذ خطتهم ، وأوحى الله إلى رسوله ﷺ بذلك ، فأمر ابن عمه عليًا بأن ينام في فراشه ويتغطى ببرده ﷺ ، وأعلمه أنه لن يناله ما يكره إن شاء الله .

ثم أخذ ﷺ حفنة من تراب وخرج وكانوا يتربصون به لقتله حسب الخطة ولكنه ﷺ خرج وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ يسٓ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ١ - ٩] .

فلم يبق منهم رجل إلا وضع على رأسه ترابًا ثم ذهب إلى بيت أبي بكر بعد أن أذن الله له بالهجرة .

❁ ❁ ❁

(١) انظر سيرة ابن هشام م ١ / ٤٨٠ : ٤٨٢ .

الفصل السادس:

الهجرة إلى المدينة

إن ليلة الهجرة ليلة عظيمة مشهودة فعندما خرج النبى ﷺ من بيته وأنجاه الله من المكيدة ومكر قريش التى أرادت قتله حسب اتفاقهم في دار الندوة فخرج وأعمى الله أبصارهم كما ذكرنا آنفًا وأنجاه من كيدهم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

وذهب النبى ﷺ على الفور إلى بيت صديقه أبى بكر ولنترك عائشة رضى الله عنها تقص علينا ما حدث . .

قالت : (كان النبى ﷺ لا يخطىء أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة فإنه أتانا بالهاجرة ، وساعة كان لا يأتينا فيها .

فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء برسول الله ﷺ في هذا الوقت إلا أمر حدث فلما دخل رسول الله ﷺ تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء فقال رسول الله ﷺ : أخرج من عندك » فقال يا رسول الله إنما هما بنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ؟ فقال : « إن الله قد أذن لى في الخروج والهجرة » فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ قال : « الصحبة » قالت عائشة : والله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ثم قال أبو بكر : يا نبى الله إن هاتين راحلتان ، قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أريقط من بنى الديل وكان مشركًا

ليدلهما على الطريق .

فدفعا إليه الراحلتين يرعاهما لميعاد خروجهما من مكة إلى المدينة ، ولما أجمع رسول الله ﷺ على الخروج عهد إلى على بن أبى طالب أن يتخلف بعده بمكة ليؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، إذ كان الناس يضعون عنده ودائعهم مما يخافون عليه ، وذلك لما رأوا من أمانته وصدقه وأتى أبا بكر فخرج معه من خوفه له في ظهر بيته فعمدا إلى غار ثور (جبل من جبال مكة) وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما مساء بما كان في ذلك اليوم من الخبر ، كما أمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهارًا ثم يريحها عليهما مساءً ليسقيهما من لبنها ، وإذا جاءهما عبد الله أو أخته أسماء بطعام اتبع عامر أثرهما بالغنم فعفى أثرهما)[1] .

وعندما علمت قريش بخروج النبى ﷺ مع أبي بكر وهجرتهم إلى المدينة جن جنونهم وجعلوا مكافأة ضخمة (١٠٠ ناقة لمن يجدهما ، أحياءً ، أو أمواتًا) .

واقترب الباحثون عنهم من قريش قريبًا جدًا من الغار حتى خاف أبو بكر على النبى ﷺ فقال : « يا نبى الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا قال : اسكت يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[2] . وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وبعد ثلاثة أيام قل البحث عنهما وأصاب قريش اليأس من العثور عليهما ، وجاءهما من استأجره أبو بكر بالراحلتين وكانت أسماء قد جاءت بطعام في سفرة

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٤٨٦ .

(٢) أخرجه البخارى .

ونسيت أن تجعل له عصامًا ، وأرادت أن تعلق السفرة بالعير فلم تستطع ذلك فشقت نطاقها نصفين فعلقت السفرة بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر لهذا لقبت بذات النطاقين ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر وارتحل معهم عامر بن فهيرة وأخذ بهم الدليل (عبد الله بن أريقط) طريقًا لم يسلكه أحد إلا نادرًا .

وحدثت بعض المواقف في طريقهما إلى المدينة وجدير بالذكر هنا :

* ما كان من أبي بكر الذي كان معروفًا إذا لقي الرجل يسأله : من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول هذا الرجل يهديني الطريق ، فيظن السائل أنه يعني به الطريق وكان مقصده يهديه سبيل الخير[1] .

* وأيضًا مرورهما بخيمة أم معبد ، فسألوها طعامًا أو شرابًا فلم يصيبوا عندها شيئًا وكانت بكسر خيمتها شاة هزيلة خلفتها الغنم لهزلها فقال النبي ﷺ هل بها من لبن ؟ فقالت : هي أجهد من ذلك . فقال : هل تأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت : بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلبًا فاحلبها ، فدعا بها رسول الله ﷺ فجاءت فمسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ودعا لها في شأنها فتفاجت (أي فرجت بين رجليها) ودرت واجترت ودعا بإناء يروي الرهط فحلب فيه حتى علته الرغوة فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب وحلب فيه ثانيًا حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها فارتحلوا .

وكان أن أسلمت بعد ذلك وبايعته ﷺ والله أعلم .

* النبي والصديق في قباء :

وصل النبي ﷺ والصديق قباء ومكثا فيها أربعة أيام وأسس مسجد قباء وصلى فيه وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة فلما كان اليوم الخامس

(١) انظر البخاري .

يوم الجمعة ركب بأمر الله له وأبو بكر ردفه وأرسل إلى بنى النجار أخواله فجاءوا متقلدين سيوفهم فسار نحو المدينة فأدركته الجمعة في بنى سالم بن عوف فجمع بهم في المسجد الذى في بطن الوادى وكانوا مائة رجل)[1] ، وهى أول جمعة صليت في الإسلام .

وبعد الجمعة سار النبى ﷺ إلى المدينة التى زحف أهلها من الانصار إلى استقباله وكان يومًا مشهودًا .

وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته كل يبغى شرف استضافته في بيته فكان ﷺ يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فبركت الناقة في موضع المسجد النبوى اليوم ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها وذلك في بنى النجار أخواله ﷺ . وجعل الناس يكلمون النبى ﷺ في النزول عليهم وفي رواية للبخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال نبى الله ﷺ أى بيوت أهلنا أقرب .

فقال أبو أيوب الأنصارى : أنا يا رسول الله ، هذه دارى ، وهذا بابى قال فانطلق فهيئ لنا مقيلاً ، قال : قوما على بركة الله)[2] .

وكان بيت أبي أيوب في أعلى داره والنبى ﷺ في أسفله حسب طلبه ﷺ وظل عنده حتى ابتنى مسجده ومساكنه .

قال ابن القيم في زاد المعاد :

(وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة - وقد تزوجها في مكة بعد وفاة خديجة - وبنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وأسامة بن زيد وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر ومنهم عائشة وبقيت زينب (بنت رسول الله ﷺ)

(١) أخرجه البخارى ، وانظر سيرة ابن هشام ١ / ٤٩٤ ، والرحيق المختوم ص ١٦٣ .
(٢) أخرجه البخارى .

عند أبى العاص لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر)[١] .

وحدث أن مرض أبو بكر فكان إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح في رحلـــه والموت أدنى من شــراك نعله

وكان بلال إذا أخذته الحمى يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلـة بواد وحولى إذخـر وجليل

وهل أردن يومًا مياه مجنـة وهل يبدون لى شـامة وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من مكة فلما رأى رسول الله ﷺ ما لقوا قال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم صححها وبارك لنا في صاعها ومدها ، وانقل حماها إلى الجحفة قالت عائشة : فكان المولود يولد فما يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى)[٢] .

وإلى هنا ينتهى جزء كبير من حياته ﷺ وبدأ الجزء الأصعب والأخطر من أجل بناء النفوس والدفاع عن كلمة التوحيد ونشرها وتحطيم الأصنام وتحرير بيت الله من رجسها فلا يعبد فيه إلا الله وحده ولله الحمد والمنة .

❊ ❊ ❊

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم ٢ / ٥٥ .

(٢) أخرجه مسلم .

الفصل السابع :

جهود النبى ﷺ في المدينة

بعد هجرته ﷺ لم يسترح وإنما شرع في بناء المسجد النبوى واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه وساهم في بنائه بنفسه فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

كما قام ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ **وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ﴾ [الأنفال : ٧٥] . رد التوارث دون عقد الأخوة . وشرع في الاتصال باليهود في المدينة ودعوتهم إلى الإسلام وكانت في المدينة من اليهود ثلاث قبائل مشهورة وهم :

١ - بنو قينقاع ، كانوا حلفاء الخزرج وكانت ديارهم داخل المدينة .

٢ - بنو النضير .

٣ - بنو قريظة وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس وكانت ديارهم بضواحى المدينة .

وهذه القبائل اليهودية هى التى كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج كعهدهم دائمًا في كل زمان ومكان فهم أهل هذا الفن ، فن إشاعة الحقد والبغض والتمرد على شرع الله فهذه طبيعتهم ألم يقل جل شأنه : ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وعاهد النبى ﷺ اليهود وكعهدهم دائمًا لم يلتزموا بما عاهدوا النبى عليه فطردهم من المدينة أجمعين فيما بعد ، ووضع النبى ﷺ أعظم ميثاق عرفه الناس في التاريخ فألف بين سكان المدينة من الأنصار والمهاجرين وجيرانهم من طوائف اليهود وهذه ديباجة الكتاب المذكور وبعض ما حواه من مواد الميثاق الذى اشتمل عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا كتاب من محمد النبى الأمى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب (المدينة) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم :

١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٢ - إن المؤمنين لا يتركون مفرحًا (أى المثقل بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل .

٣ - إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم .

٤ - لا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر ولا ينصر كافرًا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم .

٥ - إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

٦ - إن سلم المؤمنين واحدة ، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

٧ - من اغتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

٨ - أن لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن .

٩ - أنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محـدثًا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٠ - وأنكم مهمـا اختلفتم فيه من شيء فـإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ)(١) .

وهكذا بدأت الحياة في المدينة تستقر دعائمـها واطمئن الناس فيها على دينهم وأخذ النبى ﷺ يعلمهم دينهم وشرائعـه وأحكامه ، وبعث السرايا وقام بالغزوات المتابعة لنشر دين الله وحماية المدينة حـتى صار للمسلمين قوة لا يستهان بها ولله الحمد والمنة .

❊ ❊ ❊

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢ - ٥ .

الفصل الثامن :

غزوات الرسول ﷺ

غزا رسول الله ﷺ سبعًا وعشرين غزاة وقاتل في تسع : بدر ، وأحد ، والمريسيع والخندق وقريظة وخيبر والفتح وحنين والطائف وقيل أنه قاتل في بنى النضير ، وفي غزاة وادى القرى منصرفه من خيبر وقاتل في الغابة)[1] .

وها هى بعض المواقف والأحداث الإيمانية لبعض غزواته ﷺ باختصار لضيق المساحة والله المستعان .

غزوة بدر الكبرى :

غزوة عظيمة ومن الغزوات التى جعلت للمسلمين قوة يخشاها الجميع . فقد علم النبى ﷺ بأن عيرًا لقريش تحمل ثروات هائلة قادمة من الشام في طريقها لمكة بقيادة أبي سفيان وليس معه إلا أربعين رجلاً ووجدها النبى ﷺ فرصة عظيمة لاعتراضها والاستيلاء عليها تعويضًا لما أصاب أصحابه بترك أموالهم وديارهم مهاجرين إلى المدينة وعلم أبو سفيان أن النبى ﷺ سوف يعترضه فأرسل رسول إلى قريش يطلب النجدة والإنقاذ ، فقامت على بكرة أبيها وجهزت جيش بقيادة أبي جهل وكان عدد أفراده ألف وثلاثمائة مقاتل ومعه مائة فرس وجمال كثيرة .

ووجد النبى ﷺ وأصحابه وكانوا ثلاثمائة أنهم أمام معركة لم يستعدوا لها وكان المسلمين بين أمرين : إما أن يعودوا إلى المدينة ويتركوا القافلة حتى يجتنبوا محاربة قريش أو أن يتقدموا وما في هذا من خطورة لقلة عددهم وعدم استعدادهم

(١) انظر صفة الصفوة ١ / ٦٣ .

ومن تواضعه ﷺ أن استشار أصحابه في الأمر فقام أبو بكر فقال وأحسن وكذلك عمـر ثم قام المقداد بن عمـرو رضى الله عنه فقال : يا رسـول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نـقول لك كما قـال بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ولكن نقول اذهب أنت وربك فقـاتلا إنا معكما مقاتلون ، فـوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمـاد (موضع في أقصى اليمن) لجالدنا مـعك دونه حتى تبلغه فقال له النبى ﷺ خيـراً ودعا له وكان هذا حال المهاجرين ونظر إلى الأنصار فقال لهم : أشيروا على أيها الناس .

فقال سعد بن معاذ من كبار الأنصار : لكأنك تعنينا يا رسول الله قال نعم . قال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضـته لخضناه معك ما تخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غـداً إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقـاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر الرسول ﷺ لكلامه فقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعـدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مـصارع القوم) . هكذا كـانت تعاليم النبى ﷺ فـي قلوب الصحـابة وحبـهم له وابتغـاء مرضـاته جعلهم أئمة يهـدون إلى الحق ولا يخافون في الله لومة لائم أو كمـا وصفهم ابن القيـم رهبانًا بالليل فـرسانًا بالنهـار . وتم النصر على الكفـار وقتل من سـادتهم وشرفائهم الكثير كـأبى جهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وابنه وأخـيه شيبة ، وأيدهم الله بجنود من الملائكة .

غزوة فتح مكة :

سبب هذه الغزوة نقـض قريش للعهد الذى كان بينهـا وبين النبى ﷺ وعرف

(بصلح الحديبية) وقرر النبى ﷺ فتح مكة واستعد المسلمين بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل وسار النبى ﷺ حتى دخل مكة من أعلاها وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها وقال : « إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافونى على الصفا) وحدث بعض القتال في مكان يقال له الخندقة فأصيب من المشركين اثنى عشر ثم انهزموا ولحق خالد بالنبى ﷺ عند الصفا .

ودخل رسول الله ﷺ المسجد والمهاجرين والأنصار بين يديه وخلفه وحوله فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا فجعل يطعنها بالقوس ويقول : ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء : ٨١] .

وحدث موقف عجيب يشرح الصدور ويزيد الإيمان في القلوب فعندما كان النبى ﷺ يطوف في البيت كان (فضالة ابن عمير يترقب الفرصة لقتله ﷺ وهو يطوف وحدَّث نفسه بذلك فلما اقترب من النبى ﷺ باغته النبى ﷺ فقال : «أفضالة ؟ » قال : نعم ، فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تُحدث به نفسك ؟» قال : لا شيء كنت أذكر الله . قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : «استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه) .

صلى النبى ﷺ في الكعبة ثم قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل دم أو مأثر ، أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا - ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أو أربعون منها في بطون أولادها .

ثم قال لقريش : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية

وتعظمها بالآباء : الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم بعد أن أمكنه الله منهم .

ثم أمر النبى ﷺ بلال عندما حانت الصلاة أن يصعد فيؤذن على الكعبة . وارتفع صوته الله أكبر . . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

وظل النبى ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام ويرشد الناس إلى الهدى والتقى وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام وكسر الأصنام حول مكة ثم عاد إلى المدينة واستمر فيها حتى مات ﷺ .

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع :

صفات النبى ﷺ وشمائله

لقد كان النبى ﷺ مؤيداً من الله تعالى وفي رعايته وحمايته وإليك أخى القارئ صفاته الخلقية والخلقية كما رواها أصحابه رضوان الله عليهم والله المستعان.

الصفات الخلقية للنبى ﷺ :

عن الحسن بن علي قال : سألت خالى هند بن أبى هالة ، وكان وصافًا عن حلية النبى ﷺ وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئًا أتعلق به فقال : كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا - أى العظيم المعظم في الصدور والعيون - يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشزب - أى الطويل ، عظيم الهامة ، رجل الشعر - الذى في شعره تكسر وليس ناعم ولا جعد ، إن انفرقت عقيقته مزق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره (العقيقة الشعر المجتمع في الرأس) أزهر اللون - أى النير ، واسع الجبين ، أزج الحواجب - أى طويل امتدادها لوفور الشعر فيهما وحسنه ، سوابغ من غير قرن بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين - أى الأنف في عظمه أحديداب في وسطه ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم - الأشم الذى عظم أنفه طويل إلى طرف الأنف - كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم - أى واسع الفم - مفلج الأسنان - أى متفرقات ، دقيق المسربة - أى له شعر دقيق كأنه قضيب من الصدر إلى السرة كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادن متماسك - أى تام خلق الأعضاء ليس بمسترخى اللحم ولا كثيره ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس - أى رؤوس العظام - أنور المتجرد - أى نير الجسد ، إذا تجرد من الثياب والنير الأبيض المشرق موصول ما بين

الثديين واللبة والسرة بشعر يجرى كالخيط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين سابل الأطراف -أو قال سائل الأطراف خمصان الأخمصين- أى رجله شديدة الارتفاع من الأرض إن أخمص والأخمص ما يرتفع من الأرض من وسط باطن الرجل مسيح القدمين - أى ليس بكثير اللحم فيها - ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلعا ، والقلع: المشى بقوة يخطو تكفيا ويمشى هونا ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعًا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة . . ثم ذكر باقى الحديث) .

صفاته الخلقية وشمائله الجليلة :

ذكر تواضعه :

عن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » [البخارى].

ذكر معيشته في بيته :

- عن الأسود قال : قلت لعائشة : ما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا دخل بيته ؟ قالت : كان يكون في خدمة أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى .

نعم لقد كان ﷺ كما قال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى ».

ذكر معاملته لأصحابه :

عن أنس خادم رسول الله ﷺ قال : خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط ، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ وكان لا يظلم أحدًا أجره » [البخارى]. وله صلى الله عليه وسلم من الصفات الخلقية الكثير منها: حلمه وصفحه ، كرمه وجوده ، شجاعته ، مزاحه ومداعبته، عدله وشدته في الحق ، حياءه ، شفقته ورحمته بالناس ، عبادته واجتهاده . . . إلخ ونكتفى بهذا القدر من ذكر صفاته ﷺ لضيق المساحة والله المستعان .

الفصل العاشر :

أزواج النبى ﷺ

كان مما خص الله به نبيه ﷺ عن أمته أنه أحل له الزواج بأكثر من أربع زوجات ، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنتان توفيتا في حياته ، إحداهما خديجة والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة، واثنتان لم يدخل بهما وها هى أسماء أزواجه ﷺ :

١ - خديجة بنت خويلد ، وهى أول امرأة يتزوجها النبى ﷺ ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وهى أم أولاده كلهم عدا إبراهيم عليه السلام .

٢ - سودة بنت زمعة ، تزوجها بعد وفاة خديجة في مكة في شهر شوال .

٣ - عائشة بنت أبى بكر الصديق ، تزوجها بعد سودة وهى بنت ست سنين وبنى بها فى شوال بعد الهجرة وهى بنت تسع سنين .

٤ - حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمى بين بدر وأحد فتزوجها النبى ﷺ لارضاء أبيها عمر .

٥ - زينب بنت خزيمة ، كانت تحت عبد الله بن حجش فلما استشهد في أحد تزوجها النبى ﷺ وماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر والله أعلم .

٦ - أم سلمة هند بنت أبى أمية ، كانت تحت أبى سلمة فلما مات تزوجها النبى ﷺ .

٧ - زينب بنت جحش وهى بنت عمة الرسول ﷺ ، وهى أول من توفى من زوجات النبى ﷺ بعد وفاته .

٨ - جويرية بنت الحارث كانت في سبى بنى المصطلق في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فقضى رسول الله كتابتها وتزوجها .

٩ - أم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان) .

١٠ - صفية بنت حيى بن أخطب وكانت من سبى خيبر فاصطفاها النبى ﷺ لنفسه فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر .

١١ - ميمونة بنت الحارث تزوجها النبى ﷺ في عمرة القضاء .

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن رسول الله ﷺ وبنى بهن وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما فواحدة من بنى كلاب وأخرى من كندة وهى المعروفة بالجونية .

وأما السرارى فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما ماريا القبطية أهداها له المقوقس أنجبت له ابنه إبراهيم عليه السلام الذى مات صغيراً ، والثانية هى ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية وكانت من سبايا بنى قريظة فاصطفاها النبى ﷺ لنفسه وقيل بل هى من أزواجه أعتقها فتزوجها والله أعلم .

❋ ❋ ❋

الفصل الحادى عشر :

معجزات النبى ﷺ ووفاته

معجزات النبى ﷺ كثيرة وها هى بعضها كعناوين مختصرة :

١ - أكبر المعجزات الدالة على صدقه والتى تظل إلى يوم القيامة هى : القرآن الكريم الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يقدروا .

٢ - انشقاق القمر . ٣ - نبع الماء من بين أصابعه . ٤ - حنين الجذع له ﷺ ٥ - تكثير الطعام له ﷺ . ٦ - معجزة الإسراء والمعراج . ٧ - معجزة شق الصدر . ٨ - سرعة الاستجابة لدعائه . ٩ - معجزة الشاة المسمومة وإخبارها إياه بأنها مسمومة. ١٠ - تسليم الحجر عليه ﷺ. ١١- شهادة الذئب برسالته ﷺ .

وهناك معجزات أخرى ولولا خشية الإطالة وقد قارب الكتاب على الانتهاء لشرحت وبينت هذه المعجزات ولله الحمد على كل حال .

وفاته ﷺ ولحظاته الأخيرة :

- عن أنس بن مالك قال : (أن أبا بكر كان يصلى بهم في وجع النبى ﷺ الذى توفى فيه ، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبى ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبى ﷺ فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن النبى ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبى ﷺ أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر فتوفى في يومه ﷺ) .

- وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (مات رسول الله ﷺ في بيتى ويومى وبين سحرى ونحرى فدخل عبد الرحمن بن أبى بكر ومعه سواك رطب

فنظر إليه فظننت أن له فيه حاجة ، قالت فأخذته فمضغته وطيبته ثم دفعته إليه فاستن كأحسن ما رأيته مستنًا قط ثم ذهب يرفعه فسقط في يده ، فجعلت أدعو الله عز وجل بدعاء كان يدعو له به جبريل عليه السلام ، وكان هو يدعو به إذا مرض ، فلم يدع به في مرضه ذاك ، فرفع بصره إلى السماء وقال : الرفيق الأعلى ، الرفيق الأعلى ، وفاضت نفسه فالحمد لله الذى جمع بين ريقى وريقه في آخر يوم من أيام الدنيا) .

وإنا لله وإنا إليه راجعون كان موته ﷺ يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ وقد تم ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام .

والحمد لله رب العالمين والصلاة السلام على النبى الأمين محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم يوم القيامة صاحب لواء الحمد والمقام المحمود ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

سيد مبارك أبو بلال

١٨ شوال ١٤٢٣ هـ - ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢ م

❋ ❋ ❋

فهرس الكتاب

❊ ❊ ❊